# الإنسان والأرض والموت ...

## قصة بقلم سليمان فياض

ـ من التراب جئنا ، والى التراب نعود .

قالها عطية مازحا ، وضحكت مع ابتسامته سن امامية بارزة ، في جانب فمه . وتألق وجهه ببشر ساحر ، قد يكون آخر عهده بالدنيا . ونزل عطية الى حفرته ، واقعى مسندا ظهره الى جدارها الشمالي ، وفي يده قنبلة لاصقة ، اسندها الى ركبته ، وفي اليد الاخرى غابة مجوفة ، لا يزيد طولها عن اربع عقد . على رأسه كانت الخوذة الحديدية مشدودة الحزام أسفل ذقنه . حول عنقه كان منديل من « الموسلين » الاحمر ، معقود الطرف عند نحره . وتذكرت ، ربما لآخر مرة ، عينيه الضاحكتين دائما ، حتى في اللحظة التي يصحو فيها لتوه من نوم ثقيل .

بدأنا نغطي حفرته قرب السطح ، بأغصان رفيعة متجاورة ، جئنا بها معنا في سيارة ، من شجيرات برتقال وليمون . وتركنا الغابة المجوفة تطل من بينها ، بمقدار أصبع ، على سطح الارض . ومن اوراق البرتقال والليمون صنعنا سقفا آخر فوق الاغصان كسوناها بطبقة من الرمال . وتتابعنا في حفرنا تحت الشمس ، على طريق ممتد ، عند نهاية مجموعة من الهضبات . طريق ينفسح بعد أمتار قليلة من حفرة عطية ، على منبسط رملي كالميدان ، تتلوه مجموعة تالية من الهضاب .

وجاء دوري . شددت منديلي حول عنقي . واحكمت وثاق خوذتي الرصاصية ، وسترتي الطويلة الكمين ، وامسكت بيد كامل ، وأنا أنزل الى حفرتي الحادية عشرة . كانت القنبلة ثقيلة في يدي ، وحياتي ستصبح لمدة تزيد على نصف ساعة ، معلقة بهذه الغابة المجوفة في يدي الاخرى . ودرت حول نفسي ، رأينا الى السماء ، والتلال ، والافق المتعرج . وحدقت لحظة خاطفة في قرص الشمس المتوهج . لشدة الضوء تصبح الرؤية ظلاما . واقعيت مترنحا من صدمة الضوء في عيني ، مسندا ظهري الى الجدار الشمالي بحفرتي . اسندت القنبلة اللاصقة بيدي على ركبتي . وابتسمت للرفاق ، فابتسموا لي . سيظلون قريبا في الهضاب المحيطة بالسهل الرملي . ووعيت في لحظة ، مع وجوه الرفاق ، احساسا بأن الحرب ذاتها تصبح عملا يوميا عاديا ، ورتيبا ، وغير مزعج ، حتى تأتي هذه اللحظات الخاطفة . عندما نسمع صوت انفجار ، وتخطف عيوننا بوهج الضوء ، وعاصفة الرمال والدخان . نفس اللحظة الخاطفة التي نصدم فيها بحائط يسقط تحت عيوننا ، او سيارة توشك في ومضة ان تدهمنا . ذات الاحساس عشته ، لاول مرة ، حين حلقت في السماء ، في ظهيرة كهذه ، طائرة اسرائيلية ، انحدرنا تحتها سراعا ، الى شبكة من الخنادق ، في معسكر التدريب . ساعتها ، رفعت ساقي المدفع الرشاش فوق رأسي ، بساعدي . ورحنا ننتظر ان تهبط الطائرة مسرعة ، لنقصف صدرها وذيلها وجناحيها بالطلقات . واخذت اضحك ، كأن لعبة ما نمارسها الآن بشعور مغامر . لكن الطائرة لم تهبط . ظلت تحوم فوقنا . وقدرنا انها تقوم بتصوير المعسكر . واخذنا نراقب ، بخيبة أمل ، طلقات مدفعية بعيدة لجيشنا ، تحاول اصطيادها ، ثم تنفجر الطلقات بعيدا ، تاركة ، حول الطائرة ، كرات هلامية من دخان رمادي داكن ، ينبدد مع الهواء في ثوان معدودة .

قلت لدائرة الوجوه من حولي :

ـ وداعا .

وابتسموا لي ، وقال كامل :

ـ بل ، الى اللقاء .

ـ من يدري ؟

ـ ستخرج حيا .

قالها كامل مؤكدا ، دون ان يبتسم . واضاف :

ـ سوف ترى . فقط . لا تنس شيئا .

ـ لن انسى . دوري ، الدبابة الحادية عشرة .

ـ ضع الغابة في فمك الآن .. اجعلها في وضع مائل ، حتى لا تضايقك ، هكذا .

وامال كامل الغابة في فمي ، واسندها بيده ، والرفاق يضعون اغصان البرتقال والليمون الرفيعة ، قريبا من حافة الحفرة . وراحت دائرة الضوء تتقاطع بالظلال في حفرتي الصغيرة ، على ثيابي ، وقاع الحفرة ، وجدارها الدائري . وأرحت ظهري جيدا الى جدار الحفرة . ولاحظت ان قلبي قد بدأ يدق بشدة في صدري ، ويعلو وجيبه في اذني .

وقال كامل ، وهو يغطي الاغصان بعناية ، بأوراق البرتقال والليمون :

ـ ارفعها في الوسط تماما . في سرة البطن .

وكرر ايضا نفس ما قاله للرفاق العشرة :

ـ ثم .. لا تخرج من حفرتك ابدا ، حتى نأتي اليك .

بدأ الضوء يتلاشى تماما من حفرتي ، والتراب يغطي الاوراق . الآن اصبحت الحفرة قبرا ، وعلي ان اواجه الملكين الموكلين بي . ملك الدفاع ، وملك الاتهام . ملك الحسنات ، وملك السيئات : من أنت يا عبد الله ؟ ما اسمك ؟ وما دينك ؟ وماذا فعلت في دنياك ؟.. وسمعت صوت اللحاد يخاطبني ، بذات الصوت الذي خاطب به جدي : يا عبد الله . اذا جاءك الملكان ، وسألاك ما اسمك وما دينك ، فقل لهما ... سأقول : انني اعيش رجلا . اسلم نفسي للحياة والموت معا . اعانق بوجودي دورة الحياة والموت . ذلك ما تفعله الشجرة حيال الضوء والتربة والرياح . ما يفعله الطير والنبات والحيوان . لا يتردد القط البري في الغابة عن مواجهة النمر الكاسر وهو لا يعلم ما نتيجة الصراع .

اختفت كل ومضة ضوء من حفرتي . اخذت انصت للدبيب الذي يبتعد ، مع الاقدام ، وعجلات العربات ، وساد الصمت . صمت العمق الراكد ، وقلب الارض يدق في قلبي . ثمة طنين لضغط منتفخ مكتوم في رأسي . سيكون مع الملكين مقرعتان . اذا كنت مذنبا سيضربانني بهما معا الى يوم الدين . سأغوص حتى الاعماق الى مركز الارض ، ثم اطفو اليهما ليضرباني من جديد . ووجدت نفسي اضحك في نفسي . موتي هو قيامتي وساعة ديني . يا له من خيال بدائي لعالم العدم والسكون . النصر او الشهادة . أعداؤنا يعتبرون قتلاهم ايضا شهداء . اذن : النصر او الموت . هذا افضل ، واكثر واقعية . ان اعيش لارى النصر ، واعيش في آمن النصر ، او أموت قبل أن يراه الآخرون من قومي . وربما جاء موتي هربا من عار الهزيمة والضياع . هذا هو الهدف الحقيقي من وجودي مقعيا في حفرة ضيقة . بوضع الموت هذا ، في بطن الارض ، أدافع عن حق قومي في كل ذرة من رمالها . صراع البقاء بيني وبينك يا عدوي . الاصلح يبقى ، بل الاقوى ، والاقوى هو الاصلح ليحيا . الاحق بدوام الامتلاك لهذه الارض ، فاواجه الموت برضا من أجلها .

ففمت رائحة الرمال والبرتقال والليمون انفي برائحة عطرية خصبة . خصوبة هذه الحفرة ، كرائحة العجين ، وصفار البيض ، وهذه القطرات التي كنت تستمنيها وحدك معانقا وسادتك في ظلام الليل ، بدت

الحفرة اشد حرا وقيظا . مع سخونة الظهر يثور نبع الحياة ، يدغدغ الحواس ، ويسري بنشوة ممضة تحت جلدك . حنين غامر للعناق ، عناق الجسد ، والارض ، والموت . حبات رمال رقيقة . تلتصق بقطرات العرق في وجهي ويدي . وخيط من العرق ينحدر في قناة ظهري باردا ورطبا . وقف الهندي اياما عديدة على ساق واحدة . ونام هندي آخر في قبره سبعين يوما ، دون طعام او شراب . فقط كان قد شرب لتر ماء ، وأكل أوزة كاملة ثم اغلقوا عليه قبره . في الساعة الخامسة والعشرين . الساعة التي لا وجود لها في زمن الليل والنهار . الساعة التي تبدأ مع عناق قلب لطعنة خنجر . ظل الارنب يعصر ماء حياته ، حتى جف تماما . بكل عضلة ونبضة ، حاول ان يخرج من سجنه . لكن سجني أنا صنعته بيدي في هذه الحفرة . عندما تأتي ساعة اللازمن ، لاواجه الموت ، سأكون قد مت فعلا .

أنصت . دقات قلبك تهدأ ، وتخفت ، طنين يعلو في أذنيك بصفير موصول . والظلام والسكون معك ، في هذه الحفرة . حيوات اخرى على مقربة منك ، في خط واحد ، على مسافات متساوية ، في منتصف الطريق الضيق بين الهضبتين . لو مدت غابات من البوص طويلة مجوفة ، بينك وبينهم ، الآن ، لتحدثت اليهم حديث انسان يحتضر . من هذه الغابة ، في فمك ، تجذب الاوكسيجين الى رئتيك . من انفك تخرج الكربون وتملأ به فراغ حفرتك الضيق . لذلك تشعر اللحظة بالدوار ، وتسمع صفيرا في اذنيك . دع هواء الغابة اذن يجدد ، بين حين وآخر ، فضاء جحر . وعلى رئتك ان تنتظر . بعمق وبطء ، فليكن بعد ذلك نهاية العالم . تحت ظلة من الخيش ، في ضوء الشمس المنقط ، دفنت نفسك حتى العنق ، في رمال الجربى ، على شاطىء النهر ، لتخرج الرطوبة مع عرقك ، وتمتصها الرمال . حر الحفرة الآن ، يصهر جسدك ، ينضج روحك ، يمنح نفسك صفاء غير محدود ، لن تنساه ابدا . ذوبانا في الكل . فناء في الارض . من قلب الشمس ، كانت هذه الارض والرمال ، وفي قلبها تتحد الآن . تلتقي بسر الكون والحياة . تلتقي بسر النار ، والتراب ، والماء ، والهواء . من يلتق بالسر العظيم ، مم يفزع اذن او يخاف ؟ ليس هناك من سر آخر ، خارج جوهر العناصر ، في ذرات هذه الرمال . انصت :

ها هي سيارة الجيب تأتي . تقترب منك . الارض الحنون تنقل اليك هدير محركها . عجلاتها تنهب الارض . لا تبصر في وهج الشمس. وتموج السطح ، اطراف الغابات المتباعدة ، على مسافات منتظمة ، كعقد الاصبع . تمر فوقك . ثم فوق الحفرة العاشرة ، والتاسعة ، تتساقط حواليك حفنات قليلة من الرمال . تبتعد بسائقها ، ورجالها الثلاثة ، وفي أيدي الرشاشات ، وعيونهم على المدى ، مع الافق ، وراء الهضاب. لا شيء يثير ريبتهم .

« الطريق آمن . تقدموا » .

تقدمي ايتها الدبابات ، على اثرنا . ثم .. سكون . سكون . وجيب قلبك يعلو من جديد ، ويسرع . تتحد في الدقات الخفية الموهومة لهذه القنبلة : طق طق . طق طق . طق طق . تنحدر الدبابة الاولى من وهدة رملية ، وتقبل نحوك . كاملة البهاء والجلال في ضوء الشمس . ظلها يتأرجح سائرا معها . صوتها يسبقها على الطريق ، ويعلو هادرا في أذنيك . تمر فوقك . تتساقط مع ضجيجها الصاخب في اذنيك حفنات جديدة من الرمال . ليس بوسع عجلة منها ، في هذا الطريق الضيق . أن تغوص فجأة في حفرتك . لا . لست لي . ستصافحك كف عطية ، تاركا على حديدك كلمته . كلمته الوحيدة لك : الموت . مري اذن . ثم قفي مع عطية لحظة واحدة ، خاطفة ، لا تكاد ترى أو تسمع . الهدير الثاني ، للدبابة الثانية ...

لا . كفى تخيلا ، وتوقف . لن يأتي شيء كما تتصور الآن . تلك تجربة خاصة لن تعيشها بخيالك . لن تصفها بكلماتك . لكن كل ذرة فيك ستعيها تماما ، حين تأتي . قف هنا . انتظر ، عش لحظة الانتظار بلا نأمة ، ولا كلمة . تخشى ان تنام ؟.. اشغل نفسك اذن . لو كانت الاذنان لا تسمعان شيئا . والعينان لا تريان شيئا ، والفم لم يعرف طريق الكلمة ابدا . لظل العقل يفكر . خلية حية تعمل في جسدك . ترسل وتستقبل ، حتى بدون صورة أو كلمة او رقم . تطلب الطعام والماء وراحة النوم . تصنع توترات بهيجة ، واخرى حزينة . فقط سيكون الوجود والكون أنت . الظلمة والضوء . الحرارة والبرودة . والزمن . ما دام هناك فعل ، حتى في داخلك ، فهناك زمن . حركة . وجود حي . لذلك تشعر انك حي الآن ، حتى وانت في الظلمة مغمض العينين ، لا تسمع شيئا سوى صوتك الخاص في اعماقك ، وحركة الذرات الخفية في خلاياك . يقظة قصوى لم تعرفها أبدا في نوم او صحو . مواجهة الموت . مؤكد أنها هي ، تمنحك اللحظة ، ذروة الحياة، ذروة يعرفها كل محتضر . تعرفها الشمعة وهي تلقي آخر قبس باهر من الضوء . ذروة الحياة والنور في لحظة ، تمنحها لك الآن هذه الحفرة. لا . اللحظة التي تحياها الشمعة ، يعيشها المحتضر ، في الومضة الاخيرة .

يقولون . هناك ، على السطح ، فوق حفرتك . اننا بين يدي الموت ، في لحظة الاحتضار هذه . لحظة الحقيقة الوحيدة . نرى كل ما عشناه في ومضة ، شريطا خاطفا من دفق الذكريات . بعده نوصي من نحب . وبين يدينا حصاد من تجارب الساعات والايام والسنين . ولانني أواجه الموت ، في قاع حفرة ، وفي يدي قنبلة ، وثمة دبابة اثر دبابة ستمر فوقك . قد يكون موتك بلا لحظة احتضار . موتا كشعاع يتدفق فجأة ، ويتلاشى في اللحظة نفسها . تنسف معه كل خلاياك المفكرة . خلايا الذكريات ، والضحك ، والبكاء . لحظتي الآن تمتد عبر ثلاثين دقيقة ، في ستين ثانية ، في ستين لحظة . دهر بأكمله من صخب الاعماق في قاع محيط ، من وهج الانفجار في عين الشمس ، من حركة الازل والابد . سكون عامر بالصوت . ظلام دافق بالنور . والحركة كلها في هذا السكون والظلام . وسر الحياة الباهر في هذه الحركة . انى لي اذن بلحظة الشمعة ، في ومضتها الاخيرة ؟ لكنك مع ذلك ، تعيش لحظات المحتضرين ، عديد من المحتضرين ، لا لحظة واحدة . تعيشها هنا ، في حفرة ، في قبر مجوف من الرمال ، تقضي فيه وحيدا، كسجين في العصور الوسطى ، ودقات الزمن في حناياك أقوى واطول ما تكون ، على الارض ظل شجرة تتمايل في النسمة . فراشة تمرق في الضوء . نهار تتألق فيه الشمس . ليل توصوص فيه النجوم وتومض. عصفورة ملونة تشقشق . أشياء واحاسيس تملأ فراغ الزمن . هنا الكلمة ومضة . الذكريات ايضا ومضة . حياة بأسرها من الواقع والخيال لا تملأ فراغ الزمن . الزمن ؟ أي زمن ؟ تاريخ الدنيا بدأ معي. وسوف ينتهي أيضا معي ، على الارض يقولون . تصور الفكر أيضا يقول : ان الحياة كانت قبلي . وستكون ايضا بعدي . ثمة تاريخ كان، تشهد عليه الاعمار والموتى . من يولدون ، ومن يموتون . تاريخي الخاص ، وعالم هذه الحفرة ، يقول لي : لا . لا شيء قبل . لا شيء بعد . فعلى الارض كنت جزيرة منفية . وهاأنذا ، في باطن الارض ، جزيرة منفية ايضا ، مع الفراغ والظلام . والوجود الذي كنته ، والعدم الذي انحدر اليه . لم ؟ مرارا قلت لنفسك يا رجل : دفاعا عن ارض امدت حياتي ، في جزيرتي الخاصة ، بالكلمة والمعنى ، بالدم ، والضوء، والفكرة .

★★★

في الليل ، سئمنا طول الليل . ونقودنا قد نفدت مع ايام الامتحان . تنادينا عبر الجدران والنوافذ . فرشنا الحارة بالحصر ، وجئنا بالكلوبات ، واقمنا حلقة ذكر ، توافد اليها اهل الحارة : حي . الله حي . حي . الله حي . وانتهزها عبد الرحمن فرصة ، فضاجع ربة البيت ( كان زوجها يعمل في مستشفى الامراض السرية ) التصق عبد العزيز بعبد الحافظ في عناق يائس ، ورائحة السردين ما تزال تفوح منذ يومين من سوق الثلاثاء القريب . وعبد الغفار ، البقال الشاعر ، ينسج قصيدة . يبحث لابياتها عن كلمات قافية ، على منوال (( ظفر )) .

مع طلوع النهار ، حملت سلة الغاب على ساعدي . اشتريت تذكرة

سفر ، وجلست بين القضبان انتظر مجيء قطار الدلتا . رأيت بائع الصحف يجري منفعلا ، وسمعته ينادي : الجيوش العربية تدخل فلسطين . فلسطين ؟. مع انني لا اعرف سوى القليل عن فلسطين ، احسست بصدمة . تركت سلتي ، ثم عدت أليها وفي يدي صحيفة . يا للكارثة . الانجليز يرحلون ، واليهود يحتلون البلدة . الهاجانا . الارجون زفاي . خفق شيء في قلبي . احسست به يبكي . ان يحتلوا الارض ، هذا ممكن . في النهاية سيرحلون . لكن ، أن يطردوا اصحاب الارض منها ، ويبقوا هم ، هذه هي الكارثة . تذكرت غارة التتار الذين احرقوا مكتبة بغداد ، والحملة الصليبية التي راحت تبيد عرب الشام ، وتقيم لها المدن والممالك . وهذه غارة بربرية اخرى . وتذكرت حلقة الذكر ، والليلة الماضية . وشعرت بالعار من كل شيء ، وقشعريرة باردة ، تغلي بالدم ، تسري في الجذور من شعر رأسي .

انتبهت لنفسي . لا أدري متى ولا كيف ركبت قطاري . اشعر بضيق من كل الناس حولي . صعدت الى سطح القطار لاول مرة في حياتي جلست وحدي افكر كثيرا في لا شيء تقريبا . احساس بالمهانة الشخصية يبدد في نفسي كل الكلمات . لكنني كنت موقنا من شيء واحد : اللعنة على الانسان . وجدت نفسي على وشك الانفجار في بكاء هستيري . رحت اعدو فوق عربات القطار ، معه مرة ، وعكسه مرة . توقفت وانا الهث مفزعا من الخوف ، قريبا من كوة الضوء في سقف العربة . أخذت ارقب المزارع ، وعيناي على الارض والاشجار ، التي قد يأتيها اليهود يوما . لم لا . لقد ذهبوا الى هناك عند بيت المقدس . القطار يقترب من « ديرب نجم » . اصطدم عنقي بسلك تليفون . يمتد عبر طريق القطار ، فسقطت اتدحرج على سطحه المنحني . تشبثت يداي في اللحظة الاخيرة بجدار الكوة ، فنجوت ، ورحت اتحسس عنقي . جلده السلك بلسعة سوط ، تركت أثرا اسود . وتذكرت آية : « لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة » .

***

التقيت مع صديقي سيد . ثلثا القامة هو . اسمر . مستطيل الوجه . حاد الملامح . بارز الوجنات . عيناه الصغيرتان تتوثبان ببريق الحيوية والحياة . في السادسة عشرة خرج سيد من الملجأ ، ومعه عمل وهواية . طوال ساعات النهار ، كان يعمل بحماس على نوله الخشبي . ينتج امتارا من اقمشة رخيصة لا يباع اكثرها . الماكينات اليدوية في المدن البعيدة تقف حاجزا بينه وبين السوق . ساعات فراغه بدأت تطول ، يحمل فلاوته الاسود الجميل ، ويأخذ في العزف . يقرأ كتاب « شمس المعارف » ، ويسحرنا بصلاته بالجن . خصوصا « شمهورس » ملك الجن في العالم السفلي . اخته الصبية السمراء العصبية كانت الوسيط العذري البريء بينه وبين شمهورس ، تتشنج ، وتصاب بالصرع ، ويحل في جسدها الصغير شمهورس الضخم المرعب . ثم تفيق ، وتنظر في مرآة تسريحة ، وتخبرنا بصوت شمهورس عما تراه في المرآة . صدقته طويلا ، كان يكذب ، ويدبر مختلف الحيل . لم يقل لي انه يكذب ابدا . لكنني كنت واثقا من كذبه . فجأة . اوقف سيد كل شيء . وتصوف . صوفية رغبة في المغامرة والتجديد كان تصوفه ، قلق ما لم اعلمه ابدا كان يملأ نفسه . أحس بمثله في نفسي . سأم يفوق كل حد ، وعدم رضا ، وحيرة الاشياء تبدو متناقضة ، غير مفهومة . بعناية كان سيد يقرأ الصحف . قال لي مرة :

ـ لم اخلق للنول . احب الفلاوت . اريد ان اكون محاربا . ادافع عن ارض لا املك فيها حجرا .

اخذني سيد معه الى انور . شاب اشقر . عريض الوجه . ازرق العينين كمياه البحر الذي لم أره . الف عمل وعمل كان يجيده انور . عمله الاساسي اصلاح السلاح . في اصلاح السلاح كان يعمل بمعسكر الانجليز في التل الكبير . كان معروفا باسم انور « التفاكشي » لدى اللصوص وقطاع الطرق الذين يأتون اليه بسلاحهم مع شرطة المركز ، في ظلام الليل . طرده الانجليز من المعسكر لتهريبه السلاح عبر ابوابهم واسلاكهم الشائكة ، وبرغم حراسهم .

ـ ابوه كان يونانيا ، وامه مصرية ، لذلك فذكاؤه بلا حد . انه عبقري .

هكذا قال سيد عن انور . جلست معه ومع سيد . تعارفنا . وجاء مصطفى . غريب الا اذكر منه سوى طوله ونحافته ، وانه يعمل الآن مدربا للجنود ، والطلاب الذين سيصيرون ضباطا ، عرض علينا انور خطة مغامرة رهيبة . اذا كنا لا نذهب الى فلسطين ، فلنذهب الى التل الكبير . العدو واحد . يهود هناك ، وانجليز هنا . كلاهما استعمار . حاولت ان أؤكد لانور ان اليهود اكثر خطرا من الانجليز ، الآن ، وغدا ، على ارضنا . لكن صوتي ضاع في موجة حماسه لمغامرته .

ـ البيت قبل المسجد .

قال انور . قلت :

ـ العكس يمكن ان يكون صحيحا .

ـ ما نعرفه خير مما لا نعرفه ، واولى .

كان الانجليز يقومون في الصباح بأداء الالعاب الرياضية السويدية . يقفون بين الفين وثلاثة آلاف في ساحة فسيحة بالمعسكر . وكان علينا ان نذهب الى المعسكر ، ونلتحق بعمل فيه ، وحين الخروج ، نختفي مع مدافع رشاشة . سيدبرها انور ، في احدى المصفحات الواقفة بجوار الساحة . وسوف يكون هو في مقعد السائق . وفي لحظة الصفر يتحرك انور بالمصفحة في قلب الساحة . ونحصد ، انا وسيد ، بالرشاشات ، الجنود الانجليز يمينا ويسارا ، ثم يخرج بنا انور ، مندفعا بالمصفحة في لحظة الذهول من بوابة المعسكر . وعند ترعة الوادي سيكون مصطفى بانتظارنا في سيارة جيب ، سيدبرها أيضا انور . وقال انور :

ـ مهما كانت النتيجة ، فالموت لا يهم . امام المئات الذين سيقتلون من العدو .

أكان انور ينتقم من الانجليز لطرده ؟ لكن . كيف سيعود للعمل في معسكر طرد منه ؟ ذلك ما يحيرني الآن داخل هذه الحفرة . امتلأنا حماسا للمغامرة ، واحسست اني في لحظة تتويج اودع فيها الدنيا . وانتظرنا ترتيبات انور واوامره . لكن انور لم يفعل شيئا . اصبحنا لا نجده في البيت ، ولا في اي مكان . قدرنا انه يدبر للمغامرة ، ثم نسينا ذلك مع مرور الايام . والقيت في نادي المدينة ، بصوت اجش ، محاضرة عن الخطر اليهودي الاستعماري . وكانت الشوارع مزدحمة بالمارة ، الذين راحوا يتوقفون ، ربما لمجرد صوت الميكروفون .

فجأة . رأيت انور ، في كوخ من الاغصان والاوراق الجافة والقش ، وسط حديقة المدينة ، كان ضامرا جدا ، في وجهه صفرة مسودة . يلبس ثوبا بلديا متسخا على اللحم . وشعر صدره الكث يسد فتحة الثوب ، حتى نقرة النحر في صدره العريض . بجواره كسرات جافة من الخبز اربع كسرات لو ضمت لشكلت دائرة . قال لي :

ـ انني افكر .

ـ في المغامرة ؟

ـ المغامرة ؟ هذه اشياء صغيرة لا تحل المشكلة بضربة معلم .

ـ خسارة .. هيه . فيم تفكر اذن ؟

بعينين زجاجيتين ما كانتا له ، حدق في قائلا :

ـ في الارض ، والناس .

ـ والنتيجة ؟

ـ سأعرف . يقينا سأعرف .

ـ تعرف ماذا ؟

ـ اسمع . انظر : أترى هذا الفقر ؟ هذه البيوت الحقيرة ؟ والشر الذي في نفس الكل ؟

فاجأني انور بما يقول ، فأخذت احدق فيه . واستمع اليه في دهشة :

ـ ليست هناك مشكلة ، لا يمكن الا تحل . المهم ان نستخدم هذا

ـ التتمة على الصفحة ١٠٧ ـ

# الانسان والارض والموت

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

العقل وان نصل الى اقصى درجاته من التفكير . عندئذ سيقول العقل لكل شيء : كن فيكون .

ـ لست الها .

ـ لكن قبل ذلك ، يجب ان تصفو نفسي وتشف وترق . تعلو على الشهوات ، والجوع ، والظمأ . وهذا ما افعله .

ـ كيف ؟ الا تأكل ؟

ـ كسرة واحدة من هذا الخبز .

ـ هذا الخبز الجاف يا انور ؟ ستنضمر ، وتدمر جهازك الهضمي.

ـ لم أعد أتبول ، او اجوع .

لماذا ؟

ـ ستصير نفسي روحا شفافة .

ـ وجسدك ؟

ـ ليس جسدي هو الهدف . هدفي العقل .

اوشكت ان أقول له انه مجنون . لكنني خفت منه . بدا لي مجنونا فعلا . (( جنون يوناني )) . وبرقت عينا انور ، عدة لحظات بوميض هستيري ، وهو يقول :

ـ أترى هذا المكان ؟ سأبني فيه يوما ناطحة سحاب . ستملأ المصانع هذه الارض . سأزرع الصحارى الشرقية ، وانزل المطر في عز الصيف . سأحول هذه البلاد الى جنة . جنة على الارض .

الف فكرة وفكرة اردت ان اعارض بها ليفيق . لكنني خفت منه . عيناه مجنونتان . ويداه متشجنتان . وفمه معوج . زحفت للخلف بعيدا عن باب كوخه ، ببطء . ثم نهضت واقفا ، وجريت اعدو بعيدا عنه . خفت حتى ان اذهب الى سيد لاحدثه عن أنور . هو الآخر يفكر واخشى ان اعرف فيم يفكر . لقد عرفت كيف يفكر انور الآن . لا . لست مستعدا بعد لصدمة اخرى . واخشى ان اواجه حتى نفسي .

***

اقرأ مع الكثيرين في مدينتي ما تنشره الصحف عن اعمال الفدائيين ، ومذابح اليهود الوحشية . أحس بالذنب ، وعلي ان ابرىء نفسي . تساقطت القرى والمدن قديما في بلادي ، لان واحدة منها لم تتقدم لتقف مع اختها ، في مواجهة الغزاة الوافدين من وراء البحار . وعلي ان أدفع ضريبة وجودي ، افدي ارضنا العربية بدمي . في الليل ، وانا اسمع من راديو الجار اغنية : (( اخي ايها العربي الابي )) ، سرت رعدة بالهوان واليأس في جسدي وروحي . يناضلون وحدهم السيل والطوفان والاعصار فكرت انني لو مت هناك ، فلدى ابي وامي ابناء آخرون ، يجدان فيهم عوضا . وقد ولدت امي ، في الصباح السابق ، اختا لي (( انور التفاكشي )) سحقه الحلم والضياع ، وبينهما كان تمزقه . أمس سار محني القامة ، ويداه معقودتان خلف ظهره ، وعيناه شاردتان على الفلنكات الخشبية ، فدهمه قطار قادم . تبدو المدينة كلها كأنها قد تطوعت ، او على وشك التطوع ، مع انه لم يذهب منها سوى اثنين : سيد اليتيم ، وصبي اسمه انور لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره . لم يخبرني سيد بقراره ، حتى سمعت عن رحيله . اخبرتني امه دون دمعة انه حطم الفلاوت بيد (( هاون )) نحاسية . قررت ان اتطوع مع الفدائيين ، الذين ذهبوا من مدينتي الصغيرة الى فلسطين ، الارض التي احبها ، ولا اعرف عنها الا اسمها ، ونثارا من المعلومات التاريخية . لم تظهر نتيجة امتحاني بعد . لكن ، ما شأني بها الآن ، وليس ورائي زوجة ولا اولاد . وربما لن يكون لي اي غد على الاطلاق .

في الصباح ، وضعت قراري موضع التنفيذ . وكان في جيبي جنيهان . اشتريت بنطلونا قصيرا ، وقميصا نصف كم ، وبيريه كاكي . وذهبت الى امي مودعا . كان ابي خارج البيت . بكت والحت ، واسرعت بالهرب منها والسفر الى الاسماعيلية . غيرت القطار الى القنطرة غرب ، وعبرت القناة في معدية الى القنطرة شرق . وركبت قطار آخر في الرابعة مساء . كان القطار غاصا بالجنود العائدين من أجازاتهم الى رفح وغزة . لم يكن قد بقي معي سوى ربع جنيه ، وليس في جيبي تذكرة سفر عبر سيناء الى غزة . احسست لذلك بالذنب . وفكرت انني سأدفع الكثير ، وربما دمي ، من اجل كل شيء . لزمت الصمت مستسلما لما يمكن ان يحدث . لقد وصلت من مدينتي الى هذا القطار دون أي تذكرة سفر . ومن يفكر في ثقب تذاكر قطارات تحمل جنودا يحاربون . انقذني فضول الجنود ابناء الفلاحين في قرى بلادي . فأكلت معهم فطيرا ، وخبزا ، وجبنا ، ودجاجا . واعطاني عريف تذكرة قديمة ذكر لي انها لم تثقب ، وان مفتش القطار لن يعرف تاريخها في ضوء بطارية ، داخل قطار مظلم . ورحت ارقب كثبان سيناء الرملية السوداء ، في فتور .

على باب العربة ، ظهر مفتش القطار في غبش الغروب . مسح العربة كلها بنظرة ، وتقدم نحوي بمعطفه الاسود . نظر الي في ريبة فابتسمت برقة ، وناولته التذكرة فثقبها ، وفحص وجهي بالبطارية . وسألني : ـ ما آخر الخط ؟

فقلت كما علمني العريف : ـ رفح .

ـ وبعدها ؟

ـ غزة .

وابتسم المفتش قائلا :

ـ وجهك أشقر . من يرك يحسبك يهوديا .

ابتسمت . وسألني : ـ كنت في اجازة ؟

ـ نعم .

ـ متطوع ؟

ـ نعم .

ـ أين تصريحك ؟

ـ فقدته .

كنت فكرت قبلا في سؤاله واجبت عليه . وهز رأسه ، ومضى عني .

نمت وصحوت في ظلام القطار مرات عديدة . وتوقف القطار في رفح فترة ، أحسست معها انني في قلب معسكر . وهبط من القطار كثير من الجنود ومعهم العريف ، وهم يضحكون ، ويتحدثون عن كل شيء ، الا عن الحرب ، وربما كان ذلك ، بسبب فترة الهدنة التي لا مبرر لها في نظر أحد ، ولن تجلب سوى الضرر في كل تقدير . وخيل الي وأنا أنام ثانية في مقعدي ، انني أقوم برحلة أسطورية موحشة ، في أرض مجهولة ، ومع ذلك ، لم تخطر ببالي أية رغبة في العودة . وحين صحوت ، كانت الساعة العاشرة مساء ، والقطار خاليا

صدر حديثا

الاسلام والخلافة

تأليف

الدكتور علي حسني الخربوطلي

دار بيروت للطباعة والنشر

الثمن ٦ ل. ل

الا من بعض الجنود ، الذين ناموا على أرفف القطار العليا . فصعدت الى رف خال . لا بد اننا قد بلغنا غزة . ووضعت رأسي على ساعدي، ونمت بدوري .

***

مع الصباح صحوت . كان القطار خاليا ، والنوافذ مفتوحة ، وقرص الشمس يتألق في نافذة القطار المفتوحة . نزلت مسرعا الى رصيف المحطة . وسألت أحد العمال عن المعسكر الخاص بالفدائيين . فضحك ، وقال :

ـ المعسكر ؟.. لقد جاءت سيارة منه منذ نصف ساعة ، وذهبت. أين كنت ؟

ـ كنت نائما .

ـ المسافة طويلة . عشرون كيلومترا على الطريق الى رفح . انتظر . ستأتي سيارة جيب من المعسكر في العاشرة .

وتركني الشاب الفلسطيني ومضى . وجلست على المحطة ، أرقب من مقعدي بيوت غزة . مدينة في الرمال ، واطئة الدور ، هادئة تماما . لولا ثياب عسكرية تروح وتجيء . وقلت لنفسي :

« هذه هي فلسطين » .

وجدت نفسي تائها في داخلي ، وسط المشهد الهادىء الذي لم تألفه عيناي . ربما كان ذلك بسبب السفر ، والتعب ، وكون الاشياء ما تزال بعد مجهولة في حواسي ومشاعري . وقدرت أن هذا الشعور سوف يتغير ، عندما أذوب في هذا العالم الجديد ، عندما ألتصق التصاقا حميما بالتجربة الجديدة ، وبهذه الارض الاسطورية . ولم أكن في تلك اللحظة آسفا على شيء مضى . وحاولت أن أتخيل حياتي في الايام والساعات المقبلة .

جاءت سيارة جيب . وتوقفت عند باب المحطة . وسمعت صوتا ينادي :

ـ معسكر البريج . معسكر البريج .

وأسرعت الى السيارة . حياني السائق المتطوع وهو يبتسم . لم يكن ثمة أحد آخر معه غيري . بادلني حديث تعارف . ودهش اذ أخبرته انني جئت من غير نقود تقريبا ، وبلا ملابس سوى ما علي ، وبلا تصريح تطوع ، أو كشف طبي . لقد جئت وحيدا ، وبعيدا عن أية جهة . وقال لي :

ـ هذا افضل . كل شيء سيكون على ما يرام .

وصمت دهرا . ورحت أرقب ما حولي . رمال وكثبان حمراء ، لو وطئتها قدم لانهالت به الى السفح في لحظات . وللحظة ظننتها رمالا متحركة ، يكفي أن تنقل فيها خطوة ، لتغوص بالتعيس الغريب الى الاعماق ، تبتلعه وتخفيه الى الابد . وسألته :

ـ لماذا وافقنا على الهدنة ؟ كنا قريبين من تل أبيب .

أجابني وعيناه على الطريق :

ـ الخيانة ؟

قلت :

ـ لا أحسب ان هناك انسانا يخون وطنه .

قال ، ويداه على عجلة القيادة ، وعيناه على وجهي :

ـ من خان وطنه بتسليح الجيش بالاسلحة الفاسدة ، يقبل الخيانة مرة أخرى .

قلت محتجا :

ـ لكنهم سينظمون أنفسهم من جديد ، ويتسلحون بصورة أقوى وأعنف .

قال بهدوء :

ـ ذلك يحدث الآن .

وتنهد :

ـ هذه هي حكوماتنا .

ـ ونحن ؟

استغربت لوقع الكلمة . لم أقل : أنتم . لقد أصبحت واحدا منهم . نظرت اليه . لم أجد صدى لما دار في خاطري . قال ببساطة :

ـ الفدائي لا يوقف عملياته .

وعدنا الى الصمت ، والطريق يطوى طيا تحت عجلات السيارة. طريق معبد كالمرآة تحت الشمس ، وسط الكثبان . لم أكن غاضبا . كان حزني أعمق وأعنف من كل غضب . وحدثت نفسي ألا شيء بعد سوى دوام الموت ، وكثرة الضحايا . وخفت للحظة أن يتوقف العمل الفدائي يوما . مآس كثيرة سوف تحدث . ولخوفي خنقت خوفي .

انعطفت بنا السيارة يسارا على طريق منحدر معبد . ورأيت المعسكر . مساحة واسعة تتناثر فيها العنابر ، والنباتات الشوكية ، تحيط بها أسلاك شائكة ، خلفها دوائر من الخنادق المتقاطعة في الرمال . ورفع الحارس المسلح ، حاجز البوابة الخشبي عن عرض الطريق ، ثم أغلقه ثانية ، ووقف أمام كشكه الخشبي ، وشد بابهامه سير البندقية المعلقة في كتفه . وتوقفت السيارة أمام غرفة صغيرة جدا ، كانت هي مقر قيادة المعسكر . ودوّن شاب في مقر القيادة اسمي وسني وبلدي ، وذكر لي أن أتوجه الى عنبر رقم ٩ ، وأشار لي الى ناحيته .

كان المعسكر خاليا فيما بدا لي من الرجال . خمنت انهم في المواقع الامامية . وفي عنبر رقم ٩ لم أجد أحداً . كان أمام باب العنبر جدار يحجز عن مدخله شظايا القنابل . كان العنبر بلا باب . وبدت نوافذه الست العريضة عارية تماما من الحواجز والشيش والزجاج . فقط كانت النوافذ مسدودة بسلك رفيع متقاطع في مسافات صغيرة جدا ، لمنع الذباب ، وحشرات الرمال المتسللة . وكانت الاسرة أبوابا خشبية خضراء اللون ، يحملها من الطرفين برميلان من الصاج . وعند مكان الاقدام كانت بطانيتان مطبقتان على كل سرير . وفي طرف العنبر كان دولاب خشبي ذو عيون عديدة مفتوحة الابواب .

طفت في أنحاء المعسكر بحثا عن أي رفيق . كانت العنابر خالية. وبينها كان عنبر صغير به فرن مهجور ، ومناضد محطمة ، وفوق فوهة الفرن ، كان رسم كاريكاتوري لا ينسى ، لجمل يركبه عربي سمين بعباءته وعقاله ، ويمسك بلجامه جون بول ، أو ربما كان لورنس . وعلمت ، فيما بعد ، أن هذا المعسكر كان للجيش البريطاني ، الذي رحل مع دخول الجيوش العربية ، مسلما كل ما هو حيوي وهام في البلاد لليهود .

في ساحة ثانية واسعة ، التقيت بنحو ثلاثين شابا . كانوا يمارسون ألعابا رياضية ، تحت أشراف قائد فصيلة . لم تكن ثمة رتب لاحدهم . وكانوا يمارسون لعبة « البصلة » التي كنا نلعبها في الحارة. ووقفت أرقبهم . وجاء قائد الفصيلة ، وقدم نفسه الي ، وضمني الى رجاله في الحال . ولقد مضت عدة أيام ، قبل أن أسبقهم جميعا في العدو ، عدا شاب فلسطيني قصير القامة ، اسمه أحمد . وكان يجري كحمامة تطير ، لا تكاد قدماه تمسان الارض . وكنت واياه مرشحين لان نكون ذيل المثلث ، لاي دورية استطلاع ، يمكن أن تقع في كمين للعدو .

***

ثمة حوادث بارزة لا تنسى معي ، في أيام التدريب السريع على القنبلة اليدوية ، وبندقية لي أنفيلد ، وميزر ، ومدفع التومي ، والبرن، وكوكتيل مولوتوف ، وتعطيل الدبابات ، والزحف بلا سراويل ولا سترات ، وسط حقول النباتات الشوكية الجافة .

كانت بداية هذه الحوادث في أول ليلة لي بالمعسكر . نمت على سريري في عنبر رقم ٩ . كانت ليلة خريفية باردة . ولم تكن أية ملابس قد صرفت لي بعد . نمت تلك الليلة نوما عميقا ، صحوت فيه مرتين . في المرة الاولى كنت أقشعر من البرد . ووعيت انه ليس على جسدي سوى بطانية واحدة . الاخرى لا أدري أين ذهبت عني . لكن النوم سرعان ما أغرقني في سردابه المعتم الساكن من جديد . وفي المرة الثانية ، استيقظت على ضوء بطارية . كان صلاح يطمئن على نومنا . ووجدته يفحص غطائي . وفي الحال انصرف عني ، وأخذ

يحصي البطاطين فوق الآخرين . ووجد بطانيتي فوق زميل جديد ، فسحبها مع بطانيتيه الآخرين من فوقه ، وأيقظه . وجاء صلاح بالبطاطين جميعا وغطاني بها . وقال لي :

ـ هذه الملابس لا تنفعك . قابلني في الصباح قبل طابور التدريب .

وأخذ صلاح « عنتر » معه ، وعاقبه . أوقفه أمام باب العنبر حتى الصباح حارسا له . كان عنتر قد جاء الى المعسكر قبلي بيوم ، بعد أن تشتتت وحدته التي كان يقودها الضابط الفدائي الثائر أحمد عبد العزيز ، عقب مصرعه الذي ما زال يثير الكثير من الشكوك . كان عنتر شابا قصير القامة ، أسود البشرة ، ماكر العينين ، ولهما بريق ساخر دائما . لا تنقصه روح المرح ولا الشجاعة ولا الانانية أيضا . ودمعت عيناي تأثرا من الموقف ، واستسلمت للنوم من جديد .

***

حصلت على ملابس كاملة لاول مرة . ومع الضحى واجهت تجربة قاسية مع عنتر ، بعد أن ذهب صلاح الى المواقع الامامية . كنا نمسك بالبندقية لاول مرة . وكان عنتر هو الذي يتولى تدريبنا منذ اليوم . واليوم أيضا تعرفت جيدا الى عطية . كان عنتر يمسك بالبندقية من وسطها بيد واحدة . وفجأة التفت الي قائلا :

ـ امسك ..

وفي لحظة خاطفة ، كان قد قذفها في وجهي . كانت حركة سريعة ومفاجئة . وحدت عن طريق البندقية قبل أن تصطدم بوجهي . فسقطت مرتطمة بالارض . لم تكن في خاطري أية فكرة عما يريده مني . وصرخ عنتر في وجهي ساخرا مؤنبا . وانحنى عطية وأمسك بالبندقية وقال لي :

ـ لا تحزن . استعد .

وابتعد ، وقذف البندقية نحوي ، فلقفتها بكف مقلوبة ، من وسطها تماما ، وكل عرق فيّ ينبض بالسرور ، والرغبة في التحدي . في الحال صحت بعنتر :

ـ امسك .

وقذفت البندقية في وجهه . ولدهشتي لقفها في الحال وهو يضحك ، وأعادها الي فلقفتها ضاحكا بدوري . ودارت البندقية كالكرة بين الرجال . وصرنا منذ هذا الموقف العابر صديقين .

كان تدريبنا متواصلا من الصباح الى الغروب . باستثناء ثلاث ساعات لوجبات الطعام . ومع التدريب المستمر ، خف لحمي ، وأصبحت روحي أكثر صفاء ، وعناقا للرمال ، ولضوء الشمس ، وبريق النجوم ، وسمر الرفاق ، ولذة التأمل في نوبات الحراسة ، ومغامرات الاحلام مع العدو . وساعة الاستحمام اليومية مع الغروب ، عاريا مع رفاق عراة ، تحت شبكة من الانابيب ، ومجموعة من الصنابير ، وأيضا ساعة الاكل الفريدة في المطعم المعتم ، مرتين ، في الظهيرة ، والعشاء . وأذكر ان زميلا جديدا وفد الينا بعد أسبوع . كان على جسده عشرات الكيلوغرامات الزائدة من اللحم . وكان يلهث عندما يجري قليلا . ولم يرحمه عنتر . كان يجعله يعدو حولنا لمدة ساعة ، ثلاث مرات كل يوم ، دون توقف ، بينما نكون نحن مشغولين بالاستماع الى شروح مفصله عن السلاح ، والهجوم ، والانسحاب . وكان عنتر يقول لنا ، عندما نشفق على الزميل المترهل :

ـ بعد ثلاثة أيام سترون النتيجة . هاتوا هنا مريضا بصدره وسوف أشفيه .

وزاد عنتر من عذاب زميلنا الجديد ، فحدد كمية طعامه من الخبز والارز واللحم . لكن زميلنا بعد أسبوع ، صار مثلنا تماما ، بل تحول شحمه الى عضلات نحسده عليها .

في الليل كنا ننقسم مجموعات ، كل ثلاثة رجال مجموعة ، ونتبادل الحراسة في التبات المسقوفة بأكياس الرمال ، من التاسعة مساء الى السادسة صباحا . واحد يحرس ، والآخران ينامان خارج التبة . وكانت أول حراسة لي في منتصف الليل ، في تبة تقع قرب الاسلاك الشائكة فوق ربوة ، تطل على واد ، وخلفها ، داخل المعسكر ، حقل طالما أدمتني أشواكه الطويلة المدببة الجافة ، وتاقت نفسي حتى المغامرة الى أطلاق رصاصة ، عندما سمعت صوت حيوان بعيد ، يأتي من خلف هضبة بعيدة ، في ضوء القمر . ورفعت البندقية وجذبت الترباس وأعدته ، وأسندت كعبها الى كتفي . وصوبت بندقيتي الى عين القمر ، وضغطت على الزناد ، فانطلقت رصاصة مدوية ، وجف لها قلبي ، وكانت أعصابي ما تزال متوترة . لم يستيقظ احد من رفيقيّ . ولم يات أحد ليسأل . وفكرت ان أيامنا في المعسكر ينقصها شيء هام . شيء فكري مفقود ، ما أكثر حاجتنا اليه . عندما تلتحم جماعتنا بالعدو ليالي ونهارات عديدة . لماذا نحارب ؟ بوسعي ان أجيب على هذا السؤال بوضوح . ثم .. من العدو الذي نحاربه ؟ وما الذي نريده تماما من عدونا ؟ على الاقل ، فليكن هذا عهدا بيننا ، نتواصى عليه .

ومع الصباح ، جاء صلاح . أوقفنا صفين ، ووقف بينهما ، وسأل :

ـ من أطلق رصاصة في الليل ؟ الفدائي لا يكذب .

تقدمت نحوه خطوة ، قائلا :

ـ أنا !

نظر الي لحظة ، لم يسألني عن سبب بدا لي انه يعرفه .

ثم قال :

ـ كلهم سيتدربون بالذخيرة الحية ، عداك ، حتى تذهب الى المواقع الامامية .

وقد كان . لكن هذه المشكلة حللتها وحدي فيما بعد . عندما ذهبت الى المواقع الامامية ، ووقفت للحراسة خلف أكياس الرمال ، في تبة بعيدة ، كان رفيقاي نائمين ، وبندقيتي مسندة الى الاكياس ، واصبعي على الزناد ، وخواطري شاردة مع نجوم الليل . أفكر انها تظل تومض الى الابد في الحرب وفي السلام . وفجأة سمعت صوتا امامي :

ـ سلّم يا مسلم !

في ذات اللحظة ، تركزت عيناي على جندي يقف امامي ، بخوذته الحديدية ، ومدفعه الرشاش مصوب الى وجهي . في الحال ، وراسي تنزل قليلا الى أسفل ، ضغط اصبعي على الزناد ، وسقط الجندي قتيلا . وصحا رفيقاي ، وانطلقت الكشافات تجوب التل البعيد . لا أحد ، ولم يكن القتيل سوى فتاة يهودية في زي محارب ، نقلناها الى الخلف ، وواريناها التراب . ووددت لو كنا قريبين من البحر ، حتى لا تثوى في نومتها الابدية ، مع رجالنا ، في أرض واحدة . لكن الشيء المحير حقا ، هو : لماذا تواصل زحفها ، وتأتي من ورائي من مدخل التبة ، وتاخذني أسيرا ، كما كانت تود ، ما دامت لم ترد قتلي على غفلة ؟!

***

جاء أخيرا للراحة ، صديقاي سيد وأنور ، وزميل لي في الدراسة اسمه فارس . كانوا قد عادوا لتوهم من هجمة موفقة ، للمرة الثانية ، على مستعمرة للعدو ، أبيد كل من فيها من المحاربين . في المرة الاولى ، رفعوا العلم فوق المستعمرة ، وأسلموها بما فيها من سلاح وذخيرة ومؤن لابناء البلاد وعادوا الى مواقعهم ، ولم يكن قد بقي منهم سوى خمسة وعشرين مجاهدا ، من بين ثمانين . لكن المستعمرة سرعان ما هجرت ، واضطر رجالنا الى مهاجمتها ، والاستيلاء عليها ، وتدمير كل قائم فيها بالديناميت ، حتى لا يستفيد منها العدو مرة ثانية .

في البداية ، رأيت فارس . تبادلنا التحية والعناق ، وكان فرحا بنفسه في وضعه الجديد . ورفع بندقيته التومي ، وجهها بغير تصويب ، الى سلك تليفون بعيد نسبيا ، واطلق ، فانقطع السلك في الحال . وضحك . وراعتني براعته . وسألته عن سيد فارشدني الى مكانه بالمعسكر .

رأيته من بعيد . فاسرعت أعدو اليه كالريح . وتعانقنا . وكان سعيدا بمجيئي . ومع انه كان بحاجة الى النوم ، بعد ليلة قضاها في معركة عنيفة لاستعادة المستعمرة ، فقد جلس يتحدث معي . حدثني عن الفتاة اليهودية التي وجدها عارية على سرير ، في قبو بالمستعمرة .

وكيف دعته الى نفسها ، فقتلها في الحال . ووجد تحت وسادتها مسدسا ، ويدها ممسكة به . وحدثني عن أنور ، الصبي الفدائي ، الذي رفضوا أن يأخذوه معهم ، في احدى العمليات الساخنة . فركب خلسة في فجوة مكشوفة بمقدمة المدرعة . وبرغم الاشتباك العنيف الذي حدث ، لم يصب برصاصة ، بل انه قفز ومعه قنبلة يدوية ، وزحف حتى فجرها تحت عربة مصفحة للعدو ، كانت تقطع على رجالنا الطريق. وحدثني عن المهاجرين العرب ، الذين جاءوا لاجئين ، في ديارهم ، من قراهم ، نساء وأطفالا ، واقاموا وراء التلال ، لينالوا من المعسكرات القريبة أرزا ودقيقا .

وحدثني سيد عن أشياء كثيرة . ونهض بي الى مخزن موارب الباب ، دفع بابه ، وأراني في ظلمة المخزن ، بنادق قصيرة صدئة الزالق ، نسميها في قرانا : « الفرد » . وخناجر ذات حدين . وزجاجات صغيرة من كوكتيل مولوتوف ، وعتلات حديدية . ورحت اتأمل ما حولي في المتحف الحربي لمعسكرنا الصغير . ودهشت لنموذج السونكي في هذه البندقية الغريبة ، لم يكن سوى مسمار حديدي صدىء ، مثلث الاضلاع ، وغير حاد . وقال سيد :

ــ بهذه البنادق ، حارب الاوائل من رجالنا في هذا المعسكر . وحصلوا بالمفامرات الانتحارية من العدو ، على خمس مصفحات سليمة، وعدد وافر من القنابل اليدوية ، والمدافع الرشاشة ، والبنادق الحديثة، العديدة الانواع ، التي نتدرب عليها . وعندما جاء الجيش أصبحنا ناخذ منه ما نحتاج اليه ، اذا لم تسعفنا المعارك والظروف ، بالحصول عليه من العدو .

قلت غير مصدق :

ــ جيش الملك ؟ أسلحة فاسدة ؟

قال سيد :

ــ الامر هنا ليس في يده . ضباط الجيش يمنحوننا خير ما عندهم . انهم يثقون بنا أكثر مما يثقون بحكومته .

وغادرنا المخزن . سرنا معا صامتين. وأراني سيد احدى المصفحات الخمس ، واقفة في جانب من المعسكر ، وقد ثقب جسمها حول المزاغل برصاص البويز . وبدت لي الحرب ممكنة دائما ، حتى في أسوأ الظروف ، للحفاة ، وللعراة ، والمتخلفين حضاريا ، الذين لا يكادون يجدون قوت يومهم . وفكرت أن الانسان هو أعظم اختراع شهدته الارض ، وان ارادته هي أكبر طاقة في تاريخها كله . يقهره الموت ، لكنه لا يفني جنسه الحيواني والملائكي . نصف الشيطان ونصف الاله . يلبثعبر الدهور إلا فناء له الا بفناء الارض نفسها. عاش برغم الطوفانات والزلازل، والبراكين والاعاصير، وصناع الموت، وقدم جسده غذاء للارض، وللحياة الجديدة عليها دائما . دورة من دورات الحياة والخلود هو الموت . قلت لسيد :

ــ برغم الهدنة . سنعود لنحارب . عاشت الشعوب دائما ، وهلك الغزاة .

نبر سيد مبتسما بمرارة وسخرية ، وقال :

ــ هلك الهنود الحمر ، وعاش الغزاة .

دهشت لملاحظته . ذلك أيضا صحيح . لكن ، متى عرف سيد هذه الحقيقة ؟ الميدان يجعلك تحارب ، ويجعلك أيضا تسأل ، وتجتر ، وتفكر ، وتتأمل في دروس الواقع واحتمالاته . حياة الميدان هي حياتك نفسها ، ومعك الكثيرون يتحدثون ويناقشون .

وقلت لسيد :

ــ والعمل ؟

ــ نحارب ، نحارب دائما . ارجو فقط بعد أن نموت ، أن يكون هناك من يحارب دائما .

وتركني سيد لينام . قال لي وهو يصافحني :

ــ أعتقد انني لن القاك الا هناك ، في المواقع الامامية . من يدري !!

ــ هز سيد رأسه ومضى مبتعدا . ولم نلتق بعد أبدا . فسيد في عمل حربي دائم . يسري وحده في الليل أو مع آخرين ليزرع الالغام حول المستعمرات ، والطرق المؤدية اليها ، أو ينسف برجا للمراقبة ، أو شبكة للمياه . كانت ساعاته عملا يتحدث عنه الرفاق في أعجاب هادىء . وعدوت لالتحق بمجموعتي في ساحة التدريب . وفي الليل قمت بنوبة حراسة ، مع عطية وعنتر اللذين كانا نائمين الى جواري . وكانت ليلة مظلمة ، ولاذعة البرد . تختفي خلف سحبها النجوم ، وتعوي حيوانات بعيدة ، لا أعرف لها اسما .

***

تلك الليلة ، في نوبة الحراسة ، هبت من البحر نسمة غريبة باردة ، حملت معها شذى عطريا لبيادر لم ترها عيناي ، وتراقصت أمام عينيّ أوهام الليل ، وتخايلت لمركز الرؤية في داخلي معركة حربية كاملة . كانت دبابات العدو تتقدم في الليل ، من وراء هضبات بعيدة ، ثم سكنت تماما . وانسل امامها جنود للعدو . تقدموا في الظلمة . راحوا يقصفون الاسلاك الشائكة على يميني . فكرت بسرعة انه لا ينبغي ان تطلق رصاصة عليهم ، ولا حتى رصاصة الانذار المضيئة . أيقظت رفيقيّ ، فذهب عطية مسرعا عبر الخنادق ، لينذر بالخطر . وجاء يحمل لنا الامر بالانسحاب الى الخنادق . وتقدمت الدبابات عبر فتحة الاسلاك مسرعة ، حتى توسطت المعسكر . قبل أن تطلقطلقة ، هاجمناها بالقنابل ، فراحت تحترق ، بينما كان رصاصنا يصطاد الهاربين منها .

غفوت مع معركتي الوهمية . كنت جالسا على اكياس دافئة من الرمال ، وبندقيتي مسندة بين ساقيّ . ورحت أحلم حلما متقطعا . كنت معهم في اقتحام المستعمرة . كانت المقاومة ضارية . وقتل الكثيرون من رجالنا . وكنت مفقودا بينهم وسط الانقاض . وافقت لنفسي مع الضحى . كنت جريحا في كتفي ، وقد نزف الكثير من دمي . ونهضت بين الانقاض متثاقلا في اعياء . لم يكن ثمة احد فيما يبدو غيري . واحسست بالظما ، فرحت ابحث حولي عن الماء . وسمعت صوتا خافتا يهمس : ماء . ماء . اتجهت الى مصدر الصوت . رأيته امامي مسندا ظهره الى حجر . لم يكن واحدا من رجالنا . كان من أعدائنا . لم يكن يراني . كان مغمض العينين ، يئن من جراحه . أسرعت آتيه بالماء، الذي أحسب انني شربت منه . رفعت رأسه ، وسقيته من كوب . فتح عينيه ، ومد يده تحت سترته ، وأخرج مسدسا صوبه الي . قلت بهدوء وسرعة :

ــ أسكت الآن . أنت بحاجة الي .

اقمت معه أياما ، ليالي ونهارات عديدة ، أضمد جراحه ، بما أقابله من ثياب ممزقة . كانت رائحة العفن والتحلل حولنا بين الانقاض . وجاءت ليلة قمرية ، بدا فيها لكلينا ، انه قادر على أن ياخذ الآخر أسيرا الى قومه . كان مسدسه قد صار معي . أخذته منه ، في أول مرة رأيته فيها محموما يهذي . وكان يعرف ذلك . وبدا لي انه لم ييأس من أسري . كان جرح كتفي القريب من القلب ، قد التام على الرصاصة التي بداخله . ورأيتني مشتاقا بعنف الى حوار معه . قلت له :

ــ لا أمل لكم .

قال لي :

ــ الامل نصنعه صنعا .

ــ كيف ؟

ــ الاقوى يبقى .

ــ نحن الاقوى .

ــ لم ؟

ــ لاننا الاكثر .

قال لي :

ــ كلنا محاربون . رجالا ونساء وصبية . اما أنتم ؟

وضحك ، وأضاف :

ــ على قلتنا المحاربة . فنحن أكثر من محاربيكم جميعا ، وأقدر . سنكون الاكثر والاقدر دائما .

ـ اليوم ؟ ربما . غدا ؟ ربما أيضا . لكن ، بعد غد ؟
ـ لنا مدد دائم من قومنا . سنصبح ملايين هنا .
ـ وأين انسانيتكم ؟
ـ انسانية ؟ في معركة مصير ؟ ضعفت ؟ هذه بضاعة الضعفاء . الاقوى يبقى .
ـ الاصلح هو الذي يبقى . ثم .. كنتم بغنى عن هذه المعركة .
ـ الاقوى هو الاصلح . ومع ذلك ، بالانتقاء الطبيعي ، فنحن الاصلح . كل خبرة الشعوب نملكها . عشنا مشردين دائما حتى نلناها .
ـ بالمصادفة !
ـ فليكن .. لدينا أيضا كل وسائل السلطة . المال . العلم . الخبرات الفنية المتنوعة . أما أنتم ؟ هه ! التاريخ يسبقكم . هنود حمر !
ـ كانت لهم حضارة .
ـ أنتم أيضا . لكن ، الزمن تجاوزكم . سنة الحياة . لا بد أن تستسلموا لنا ، أو ...
ـ أو ؟
ـ أو تبادوا ..
ـ كيف ؟ مضى ذلك الزمن . ظروف العصر تغيرت .
ـ الانسان دائما يغير أي ظرف لصالحه ، اذا لم يستطع أن يركبه . اسمع .
ـ قل .
ـ نحن في قمة المجتمعات المتحضرة . لنا سهم وافر في كل ما هو هام لديها : المال ، العلم ، الفن ، الدعاية . نعيش في مكان القلب منها ، ولسنا منها . لاسباب عديدة تسحب أبسطة السلطة والسيطرة من تحت أقدامها . نستخدمها الآن لنحل محلها ، في هذا العالم .

وتنهد اليهودي الضامر الوجه ، الحاد العينين ، وقال :
ـ سنضعكم أمام الامر الواقع ، عدة سنين . ثم .. نضعكم أمام أمر واقع من جديد .. وهكذا .
ـ كيف ؟
ـ مزيدا من الارض .. مزيدا من الارض دائما . لا شجرة بدون أرض . لا شعب بدون أرض . اذا احتاج الواحد منكم لشبر ، ليعيش ، فالواحد منا بحاجة الى هكتار ، ليحيا .
ـ وأصحاب الارض ؟
ـ عليهم أن يذوبوا في كيان اسرائيل ، أو ...

وضحك . كان واثقا من نفسه . قاومت رغبة في صفعه وقتله . قال لي مهونا :
ـ لا عليك . هذا قدر اسرائيل . بأيدينا نصنعه .
ـ وقدرنا ؟ نحن أيضا نصنعه .
ـ بالتأكيد . وسوف نرى . انكم تعانون من أمراض الشيخوخة . أمراض عديدة . انظر .

وأشار اليهودي الى ناحية . نظرت حيث أشار . لكمني في وجهي ، فوقعت متدحرجا الى أسفل . دفعت نفسي أكثر للتدحرج بعيدا عنه . وكان يلقي بنفسه نحوي من أعلى . اصطدته برصاصة من مسدسه . وانحدرت أبحث عن قومي .

أفقت من حلمي ، على البندقية تسحب من بين يدي . فتحت عيني وأنا أنهض بفزع . كانت البندقية مشهرة في وجهي . في الظلمة ميزت وجه صلاح القريب مني . قال :
ـ كلمة السر ؟
قلت : ـ محارب .
رد الي البندقية قائلا :
ـ لا تنم في الحراسة . انتهت نوبتك . أيقظ زميلك .

كان طرف سيجارته يتقد في الظلام . وهو يجذب نفسا عميقا ، ويمضي مبتعدا الى تبة أخرى . وكنت غارقا في خجلي ، فلم ألتفت نظره اليها . وأنا أنام مع الفجر ، فكرت انني لم أكن احلم . كنت في غاية اليقظة . الآن فقط ، سأنام . والمشكلة هي انني سوف أحلم من جديد .

***

أمس ، شهدت واحدة من المعارك التي حصل بمثلها رجالنا ، على ما يريدونه من العدو . كانت أول معركة اشترك فيها عند منعطف هضاب ، كنا نكمن في أعلى تلين ، وأيدينا على الزناد . جاءت سيارتا نقل كنا نعرف سلفا ما بهما . وكان كامل هو الوحيد الذي يرفع جسمه الى مستوى صخرة ناتئة ، يرقب حركة السيارتين . عندما انعطفتا مع الطريق ، رفع كامل يده بحركة خاطفة وانزلها الى أسفل . في الحال فتحنا الرشاشات على الرجال الاربعة في صندوقي السيارتين ، والحارسين المتواريين في الجزء الخلفي . وأعطبنا العجلات الامامية . واصطدمت السيارة الخلفية بالسيارة الامامية ، فمالت جانبا ، وحجزهما جانب الهضبة . وظل موتوراهما يهدران . وأخذنا السيارتين غنيمة بما تحملان : دجاج ، وصناديق مؤونة ، وعلب شيكولاتة . وذلك اليوم عم الفرح رجالنا في المعسكر ، والمواقع الامامية. لقد أتيحت لنا عدة وجبات طيبة ومترفة . وسوف يفرح أطفالنا اللاجئون ، حول المعسكر ، عدة أيام ، بما نحمله اليهم .

في ذلك اليوم أيضا ، تعرفت الى كامل لاول مرة ، معرفة روح بروح . طويل ، لوحي القامة ، مشدود العنق دائما . لا يعطي وجهه أي انفعال . عيناه ساكنتان أبدا . وراءهما عقل يحسن التفكير والتدبير ، لوح البرد والحر وجهه ، فاصبح من الصعب أن تتعرف الى لون بشرته الحقيقي . لقد ترك الميدان على وجهه هذا الطابع الاسمر المجهول الدرجة . نموذج لقائد كفء ، مزموم الشفتين . لم ينل كامل من التعليم سوى قدر ضئيل للغاية في مدرسة اولية . وها هو الميدان والنضال يمنحانه انسانيته وهويته ، وكل الخبرات التي يمكن أن يحصل عليها رجل من معدنه ، في أفضل الظروف الاجتماعية . وعندما جاء لزيارتنا ليلا ، وتنقل بيننا ، فكرت أن أعرض عليه خطة مثلى ، للهجوم على مستعمرة ، أي مستعمرة ، التي لم أرها بعد . لكنني حين رفعت عيني الى عينيه ، وكنا وحيدين ، بلعت ريقي . وقدرت انه سيقول لي :
ـ لا تحلم . كن واقعيا . هم لا يحلمون . وانما يروضون الواقع بالفكر ، الذي تحمله أنت أيضا ، في رأسك .

عرقي ما زال يتفصد بغزارة . بجانب سبابتي أدير عرق جبيني ، وأنثره بحذر على جدار حفرتي الاسطوانية . من تحت خوذتي يتحدر العرق خيوطا . في مائي غارقة رأسي ومبتلة . كل جسدي تستيقظ فيه غدد العرق وتتفتح . نبضات قلبي تخنقني بانفاسي . لذع الملح في عيني محرق . وطعم الملح في شفتي المزمومتين بعصبية . تضايقني هذه الغابة . بودي لو أهشمها بأسناني . غيبوبة تقبل من بعيد . تضغط أذني بطنين مقبض . عرق في ودجيّ تنبض بحدة موجعة ، تدق بنبضات القلب . تنشر ألما حادا في دائرة رأسي وسقفها . كان شمسا محرقة تسطع فوق رأسي ساعات طويلة ، في صحراء مجدبة . في حمام ساخن ، يتكثف بخاره . تتشرب الرمال وهج الشمس المحرق ، أسفل ، فأسفل . تنفثه حرارة تذيب جسدي . تحيله خيوطا من ماء ملحي رطب. وهذه الدبابات لا تأتي بالخلاصة أو بالموت . أود لو أنهض هاربا ، دافعا هذا السقف ، ناجيا من رائحة السرمال والبرتقال والليمون . أود . أود .

تضيق حولي الجدران ، وتقترب ، وتقترب . زاحفة باغفاءة وخدر . ترتعد أعصاب كفي بهذه القنبلة ، التي تزداد ثقلا . أشعر اني ساجن أو انفجر . أحرك يدي لافك أزرار سترتي ، وعقدة منديلي . أصابعي ترتعد وترتخي . لا سلطان لي عليها . أوه . كيف اذن سادفع بكل هذا الثقل ، الى أعلى . بهذه القنبلة الجهنمية الى سرة البطن . بل كيف ساجد القوة لازيح هذه الاغصان ، والاوراق ، والرمال ، مع قدوم دبابتي . ينبغي أن تأتي هذه الدبابة الآن . الان ، قبل أن يفوت الاوان ، وأغفو ، وأغفو .

لا . لا . لن استسلم ابدا . ينبغي أن يظل هذا العقل يفكـر . وأذناي تنصتان . لكن ، هذا الطنين ، يحجب عني اللحظة مدى السمع. ستختلط أصوات الدبابات بهذا الطنين فلا أميـز شيئا . لا ادري . هل أقبلت ؟ هل مرت ؟ هل ما تزال بعيدة ونائية . ها أنذا أفلح أخيرا في تحرير زرار سترتي العلوي ، وفك عقدة منديلي . اجفف عرقـي عن الوجه والعنق والنحر . وثيابي كلها الآن مبتلة . لا . لا ينبغي أن أتحرك كثيرا . كل حركة تستنفد جزءا من طاقتي ، تزيد من عرقـي ، تحتاج مزيدا من النبض والانفاس . بل ينبغي أن أتحرك لاظل يقظـا ، لانجو من الخدر . وهذه الاغماءة التي تزحف في بطء قاتل . ما كنت لاصمد لها حتى اللحظة ، لو كنت هناك على سطح الارض في مدينتي البعيدة . لكن ، كل حركة ، خطوة على طريق المـوت . فلافكر اذن . كيف ؟ ليس هناك جديد يهم ، ولا قديم يثير . يزيد بي الحنين الـى صدر امي ، الى الغفوة والسكون في حجرها . في هذه الحفرة مـن الارض . هناك في الغرفة النائية .

يحضرني اللحظة وجه أمي . دائري أسمر . لا تعبير في عينيهـا المسلمتين سوى العطف والحنو . بريق لحب البنين والبنات لا يخبو. كهذه الحفرة النهمة أبدا للروح والجسد . امس ، مع الغروب ، جاءت رسالتها بخط أبي ، وكلماته :

« أمك مريضة جدا . تريد أن تراك . لا تكـن قاسيا يا بني . تعال ، ثم .. عد » .

لكنني أعلم انني لو ذهبت ، فقد لا اعود أبدا . ليست لي أيـة صفة في مدينتي ، سوى صفة هارب ليتطـوع بلا هوية ، وبلا اذن ، وبلا تصريح طبي . سأظل أحمل ما حييت شعـورا بالعار والندم . ولسوف يزيد احساسي بالضياع بين قومي . حياة آسنة ، لان ضريبتها وفداءها لا يدفعان بسخاء كما ينبغي . كتبت لك فـي الحال يا أمي ، وأسلمت كلماتي للرفاق ، ليحملوها اليك . واعلم يا أمي انك فـي أيام النفاس العسيرة ، قد تقتلين على فراشك ، بسببي .

« لا . ربما في وقت آخر يا أمي . دعواتي ».

كم مضى من الوقت في هذه الحفرة . ساعتي تركتها مع كامل ، ومعها بضعة قروش . كنت بها أمني نفسي بعنقود من العنب . عقارب ساعتي الفوسفورية كانت ستنير لي ظلام هـذه الحفرة ، وترسم ، بالوهم ، أخاديد غائرة ، في هذه اللحظات الابدية . كانت الغابة تثير لعاب فمي بغزارة ، وها هو حلقي يجف ويظمأ . اقبلي . اقبلي بالموت أو الخلاص ، أيتها الدبابات ، وأسرعي . على جناحين من الحـلم ، يحملني الحنيـن الى مدينتي ، وبيتي ، وغرفتي . أطباق الطعام تحملها يدا أمي . تضعها على المائدة . لكن ، يا أمي ، أين الملح ، والماء .

الصباح الاول ، في الغرفة المؤجرة مؤقتا ، لاسبوع الامتحانـات . الساعة السادسة صباحا . يدي تدير مزلاج النافذة ، وتدفع مصراعيها الخشبيين . حارة ضيقة . ونافذة أخرى بالمقابل مفتوحة . سرير في المواجهة ، وهي عليه شبه عارية ، في صباح صيفي .

ـ محمد . محمد . تعال .

تكسر يدي حصاة من الجدار الجيري . تقذفك بها . تفتح عينيها الواسعتين . تخرج لسانها بغير اكتراث ، وتدير ظهـرها العـاري . ووجهها الى الحائط . تواصلين نومك من جديد . طوال ليلة كاملـة ، ظللت معهم تضحكين ضحكة مسطولة ، وكركرة محمومة لا تتوقف ، حتى خمدت أصوات الرجال ، وانطفأ الضوء . في الظهيـرة سمعت صوتك تغتسلين ، خلف نافذة مغلقة .

ـ سنيه . سنيه . تعالي . جاء سيد .

ـ حالا يا أبي .

تهبطين ولا أراك . أسمع صوت قدميك المخضبتين بالحناء .

ـ تعالي هنا . أين الريال ؟

ـ ريال . طيب . عندما أعود يا أبي .

ـ معك ريال يا سنية . أريد السجائر . لا تخافي . معك سيد .

سيأتيك بزبون .

ـ أف . طيب يا أبي . خذ .

ربما أقتل المأساة في حياتك أيضا يا سنية . أحرر ، مع هـذه الارض ، جسدك ، عندما تدفع يدي هذه القنبلة في الدبابة الحاديـة عشرة ، الثانية عشرة ، الثالثة عشرة . الدبابة الالف يا سنية .

ـ أنت يا بني . قل . متى يكون الجهاد فرض كفاية ؟ ومتـى يكون فرض عين ؟

الآن ، أقول لك ، يا شيخي ، ذا الوجه المرتخي ، والكرش السمين : الجهاد فرض عين . فرض عين حين يصبح الفداء قدرا وواجبا . تعرف ذلك يا شيخي ، وتعرفه روحك الكامنة في أعماق أبي . فلم يدعونـي اليه ، كاذبا كان أو صادقا ؟! لم ، لم يا شيخي ، لا نحيا ما نفكر فيه، ونحسـه ؟!

« ها هي الدبابات تقبل من بعيد .

هديرها تسري به الارض الى حفرتي . عجلاتها تهز ذرات الرمال . تنشر في أديمها موجات ، راعدة ، صاخبة ، متلاحقة . توقف أيهـا الطنين . دعني أسمع . بل فاهدر معها . اني أعلم اللحظة انهـا تقبل . رفقا بي يا قاع حفرتي ، يا قلبي . دع يدي تتحرك ، وهـذه القنبلة يخف ثقلها في كفي . آلاف النمال تسري في أطرافي بخـدر موجـع . تمددي يا كل عضلة فيَّ وتقلصي . لحظتك الرائعة وذروتك الآن . هبتك لروحي ، ولهذه الارض . لنور النهار ، ووميض النجوم. لقومي . خلاصك لي ، لنا ، الآن . الان. ها هي سيـارة الجيب تمر فوقي مسرعة . تتساقط الرمال من جدرانك يا حفرتي . ليس الآن . كوني لحدا اذا شئت . لكن ، لا تدعي سقفك يسقط أبدا ، حتى تأتي دبابتـي .

تقبل الدبابة ثقيلة وبطيئة . ترتج الارض تحتي . يتفجر الصوت الهادر المصم ، شلالا ينقطع . يبتعد ليهدر من جديد . الدبابة الثانية. في فيلم ما ، نامت سيدة عاقر بين قضبان قطار . مر القطار فوقهـا عربة عربة ، لتحمل . بودي لو فتحت كوة في سقف هذه الحفـرة ، لارى مشهدا فريدا ومرعبا : عجلات الدبابة الساحقة ، جنازيرها التي تطحن كل شيء ، وهذه البطون الخرافية . حتى تأتي دبابتي .

الدبابة الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، خيالي يخترق السقف ، والهدير ، وأراك قطار من العجلات والجنازير والبطون . الدبابـة السادسة . السابعة . الثامنة . التاسعة . العاشرة . أسرع يا عطية. أزل سقفك بيسراك . بيمناك فادفع بقنبلتك في سرة البطن تماما .

دبابتي تقبل بالخلاص ، بالحياة أو بالموت ، بـل بهما معا . أزل هذا السقف الآن ، ليس بوسعهم أن يروا شيئا . أزل غشاء هذه القنبلة اللزج . أنظر . الضوء يعشيك ، لكنك ترى . انظر . هـذه هي سرة البطن . فلندفعها معا يا رفـاق . يا سر الارض والانسان والحيـاة والمـوت . خذي . ابتعدي أيتها الدبابة الآن ، واسرعي . عـد الآن لرقدتك . المغناطيس يلتصق بالحديد . احتراق ما يتـوهج ، يتفاعل في قلبك يا قنبلتي . قلب . قبل . قنبلة . قبلة . قبيـلة . قبيل لحظة الرعود والانفجار .

طم . طم . طم . طم .

يا للنور الساطع ، والبرودة المرعشة . أسناني تصطك . وهـج الشمس يسري باردا في عظامي . رصاص رجالنا يحاصر الهاربين مـن دباباتهم . يخنق الصراخ الزاعق المحموم . بعضا من عطاياكم لقومـي . سوف تتعانقون أيها الرفاق . سوف تجيئـون ؛ سوف تدثرونني بالبطاطين . دعوني أولا أغف لانام . وحيا كنت أو ميتا ، فاسكبوا في فمي لبنا وملحا. ظامىء قلبي ، وجافة شفتاي . لحظة . لحظة يا رفاق. ماذا قال عطية ؟ أجل . أجل .

ـ من التراب جئنا . والى التراب نعود .

القاهرة

**سليمان فياض**